

التحقيق السردي للسيرتين الذاتيتين: "الأيام" لطه حسين، "وأكي سنوات الطفولة" لـوولي شوينكا: دراسة مقارنة

د. عبد الحكيم زبير

قسم اللغة العربية، كلية الآداب

جامعة إلورن، إلورن، نيجيريا

zubair.ah@unilorin.edu.ng

+2348033768007

ملخص

تتحدث المقالة عن دراسة مقارنة بين السيرتين الذاتيتين "الأيام" لطه حسين و"وأكي سنوات الطفولة" لـوولي شوينكا. وتتناول المقالة الأساليب السردية المستخدمة في كل من السيرتين وتحليل الأنماط السردية والموضوعات المشتركة والفروقات بينهما. يتميز كل من السيرتين بأسلوب سردي مميز يعبر عن تجارب الكتاب بشكل شخصي ومؤثر، ويتناول كلا الكتاب موضوعات مشتركة مثل النضال والتحدي والبحث عن الهوية والذات، وإضافة إلى تسليط الضوء على قضايا اجتماعية وسياسية. ومع ذلك، يتخذ كل كاتب أسلوب سردي مختلف، ففي "الأيام" يركز طه حسين على تجربته في البحث عن العلم والمعرفة، بينما يتناول وولي شوينكا في "أكي سنوات الطفولة" تجربته في التعرض للتحديات في قريته والجرمان. وتتضمن المقالة أيضًا تحليلًا للأنماط السردية المستخدمة في كل من السيرتين، وكيفية تمثيل تلك الأنماط للتجارب الشخصية للكاتبين، إلى جانب تحليل الفروقات بين الأساليب السردية والموضوعات المناقشة في السيرتين. وختامًا، فإن المقالة تسلط الضوء على الأساليب السردية المختلفة المستخدمة في السيرتين وتوضحت كيفية تمثيل التجارب الشخصية للكتاب، وأكدت أهمية السيرة الذاتية كنوع أدبي يسمح للمؤلفين بالتعبير عن تجاربهم الشخصية بطريقة فريدة ومؤثرة.

Abstract

The article discusses a comparative study between the autobiographical works "The Days" by Taha Hussein and "Aké: The Years of Childhood" by Wole Soyinka. The article examines the narrative techniques used in each of the autobiographies, analyzing the narrative patterns, shared themes, and differences between them. Each autobiography is characterized by a distinctive narrative style that expresses the authors' personal and impactful experiences. Both works address shared themes such as struggle, challenge, and the search for identity and the self, in addition to shedding light on social and political issues. The main issue of this study lies in the historical and social context in which Taha Hussein and Wole Soyinka were raised; how this is reflected in shaping their personalities and life experiences, as well as the narrative techniques and literary styles used by each in narrating their autobiographies. This study adopts a multidimensional methodology that combines narrative, comparative, and interpretive approaches, aiming to reach a comprehensive and in-depth understanding of these autobiographical texts and analyze the shared and different characteristics and issues. However, each author adopts a different narrative

style. In "The Days," Taha Hussein focuses on his experience in the pursuit of knowledge and education, while Wole Soyinka in "Aké: The Years of Childhood" addresses his experience of facing challenges and deprivation in his village. The article also includes an analysis of the narrative patterns used in each autobiography and how they represent the authors' personal experiences, as well as an analysis of the differences between the narrative styles and the discussed topics in the two autobiographies. In conclusion, the article highlights the different narrative styles used in the autobiographies and how they represent the authors' personal experiences, affirming the importance of autobiography as a literary genre that allows authors to express their personal experiences in a unique and impactful way. The study concludes by emphasizing the civilizational and human intersections between the two autobiographies, despite the different cultural and social contexts in which they were produced.

مقدمة

السيرة الذاتية هي وثيقة فريدة ورائعة التي تمكن أن تحافظ على قيمتها في التاريخ كسرد من منظور شخص مع توفير هويته المحددة في البحث الأدبي. والأعمال السيرة الذاتية هي بطبيعتها ذاتية، ومع ذلك، فإن قوة الشخصية لا يمكن إزالتها من ذاتية المؤلف في سيرته الذاتية. وتقدم هذا الفن نهجاً جديداً في الأفق الأدبي للطريقة التي تمسك بها الأفراد للتعبير عما في أنفسهم ويفهمون تجاربهم الخاصة. والمقالة، تتناول السيرة الذاتية في كلا الكتابين "الأيام" لطله حسين و"أكي سنوات الطفولة" لـ وولي شوينكا، حيث يحكي كل منهما قصة حياته وتجربته الشخصية في مراحل مختلفة من عمره. في هذه الدراسة المقارنة، سوف أقوم بالتركيز على الأوجه المشتركة والاختلافات بين الكتابين.

بدايةً، يمكن القول أن الكتابين يتشابهان في كونهما يعرضان تجربة حياة المؤلفين بأسلوب السرد الذاتي. كما أنهما يقدمان تفاصيل حول الحياة الاجتماعية والثقافية في المجتمع الذي عاشا فيه. كلا الكتابين يحكيان عن التحديات والمشاكل التي واجها المؤلفان خلال حياتهما الطفولة، وكيف تغلبا عليها ونجحا في تحقيق أهدافهما. ومع ذلك، هناك أيضاً اختلافات بين الكتابين. فمن ناحية الأسلوب، يعتمد طه حسين في "الأيام" على السرد الشخصي، حيث يصف تجربته الشخصية ومشاعره بشكل مفصل فاستخدم ضمير الغائب إشارة إلى نفسه. بينما يعتمد وولي شوينكا في "أكي سنوات الطفولة" على السرد الوصفي، حيث يصف الأحداث والتفاصيل بشكل صريح مع الانصراف كثيراً إلى الأحاسيس الشخصية. علاوة على ذلك، يتناول كل كتاب قصة حياة مختلفة. يحكي طه حسين في "الأيام" قصة حياته الشخصية وكيفية تأثير الثقافة والتربية على شخصيته ورؤيته للحياة. بينما يحكي وولي شوينكا في "أكي سنوات الطفولة" قصة حياته في نيجيريا، ويسلط الضوء على طفولته في قريته أكي. يتضمن كل من الكتابين موضوعات مشتركة مثل النضال والتحدي والبحث عن الهوية والذات، إضافة إلى تسليط الضوء على قضايا اجتماعية وسياسية ذات أهمية كبيرة، مثل الاستعمار والتحول الثقافي.

من الأسطورية إلى الوعي التاريخي بين الأدبيين في سيرتيمما الذاتية

من الإمكان أن نقول أن مدى تطور الوعي التاريخي والاجتماعي للأدبيين في سيرتيمما الذاتية. فالأديبان طه حسين ووائل شوينكا يعتبران من الأسماء البارزة في الأدب العربي والأدب الإنجليزي النيجيري على التوالي. ويقارن هذا الموضوع بين كتابيهما الذاتيين "الأيام" لطله حسين، و"وأكى سنوات الطفولة" لوائي شوينكا. يعكس النص مدى تطور الأدبيين في فهمهما للعالم وتحليلهما للأحداث التي شهداها خلال حياتيهما. فقد بدأ من حيث الأساطير والأسطورية في فهم التاريخ والواقع، ثم تطور وعيها التاريخي والاجتماعي مع مرور الزمن، وصولاً إلى مرحلة الوعي التاريخي الكامل الذي مكّنها من فهم التاريخ وتحليله بشكل أفضل وأدق. ويعكس أيضاً العلاقة بين الأدب والتاريخ، حيث يمكن للأدباء أن يلعبوا دوراً هاماً في تحليل الأحداث التاريخية وإعطائها معنى أعمق وأوسع، ومن ثم تحويل هذه التحليلات إلى أعمال أدبية تمتع القارئ وتساعد على فهم التاريخ بشكل أفضل.

ومن الممكن التحدث عن الحالة الإنسانية عبر الزمان والمكان بالتأكيد، وعلى الرغم من أن هذا الشرط مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالسرد، فلا شك في أن الشكل المحدد هو الحالة الإنسانية الذي يفترضه السرد على نطاق واسع.^(١) على سبيل المثال، هناك ثقافات حيث يتم تأطير الشخصية البشرية بشكل أقل من حيث الهوية الفردية، بقصتها الفريدة والتي لا تتكرر عن الظهور من حيث مكانتها الاجتماعية، ودورها في نمط ثقافي من حيث يمكن اعتباره خالداً. لذلك يبقى السرد فئة ذات صلة في مثل هذه الثقافات ولكن يمكن اعتبارها أكثر مسألة ملكية عامة وليست خاصة. وقد يكون التفرد وعدم التكرار مصطلحين غريبين عن الحالة البشرية؛ قد يكون التشابه والتكرار، وضع الحياة في قالب كوني أبدي، الذي هو ترتيب اليوم بدلاً أو الأكثر من ذلك، لأن العيش، بقدر ما يستلزم العيش من قصة أسطورية تتجاوز حدود "الأيام" و"وأكى سنوات الطفولة"، قد لا ينفصلان فعلياً عن الرواية.

أما بالنسبة لفهم السيرة الذاتية - بقدر ما ينطوي على فهم تقييمي للسيرة الذاتية والاستعلام السردى بالنظر إلى الورا عبر تضاريس الماضي الشخصي من وجهة نظر الحاضر - فقد يكون غير موجود تقريباً. لأن أسلوب فهم السيرة الذاتية الذي وصفه أمثال Gusdorf من الأدباء الغربيين هو في حد ذاته وضع واحد، ومن الذين يحددون فهم السيرة الذاتية بشكل رئيسي في الغرب "بالنظر إلى الورا على الماضي الشخصي" تعرضوا للنقد في بعض الأحيان من أجل تقييدية مفردة، وهذا النقد صحيح. بالتأكيد، لأن هناك أنماط أخرى من فهم السيرة الذاتية. أما بالنسبة للأغراض الحالية، سأركز انتباهي على الأدبيين في سيرتيمما، جزئياً من أجل تحديد نطاق استفساري، وبالتالي استجواب هذا الوضع بعمق أكبر، لأن هذا الوضع لا يزال مهيمناً في هذا القطاع من البحث السردى التي تهدف إلى جمع تاريخ الحياة^(٢) من خلال السيرتين الذاتيتين. ومن أمثلة هذه الأسطورية مما قالها حسين في كتابه الأيام :

"ثم ينقل إلى زاوية في حجرة صغيرة فتنبه أخته على حصيرة قد بسط عليها لحاف. وتلقى عليه لحافا آخر وتذروا في نفسه لحسرات، وإنه ليمد سمعه مَدًا يكاد يخترق به الحائط لعله يستطيع أن يصله بهذه النغمات الحلوة التي يرددوها الشاعر في الهواء الطلق تحت السماء. ثم يأخذ النوم، فما يحس إلا وقد استيقظ والناس نيام، ومن حوله إخوته وأخواته يغطون فيسرفون في الغطيط، فيلقى اللحاف عن وجهه في خيفة وتردد، لأنه كان يكره أن ينام مكشوف الوجه وكان واثقا أنه إن كشف وجهه أثناء الليل أو أخرج أحد أطرافه من اللحاف، فلا بد من أن يعث به عفريت من العفاريت الكثيرة التي كانت تمر أقطار البيت... فإذا أوت الشمس إلى كهفها والناس إلى مضاجعهم، واطفئت السرج، وهدأت الأصوات صعدت هذه العفاريت من تحت الأرض وملأت الفضاء حركة واضطربا ونهامسا وصباحاً".^(٣)

وقال أيضاً:

"وكان كثيراً ما يستيقظ فيسمع تجاوب الديكة وتصايح الدجاج، ويجتهد في أن يميز بين هذه الأصوات المختلفة فأما بعضها فكانت أصوات ديك حقا، وأما بعضها الآخر فكانت أصوات عفاريت تتشكل بأشكال الديكة وتقلدها عبثا وكيدا ولم يكن يحفل بهذه الأصوات ولا بها لأنها كانت تصل إليه من بعيد، إنما كان يخاف الخوف كله أصواتا أخرى لم يكن يتبينها إلا بمشقة وجهه".^(٤)

ثم قال:

"وكان يخاف أشد الخوف أشخاصا تمثلها قد وقفت على باب الحجر فسدته سدا وأخذت تأتي بحركات مختلفة أشبه شيء بحركات المتصوفة في حلقات الذكر، وكان يعتقد أن ليس له حصن من كل هذه الأشباح المخوفة والأصوات المنكرة إلا أن يلتف في لحافه من الرأس إلى القدم... وكان واثقا أنه إن ترك ثغرة في لحافه فلا بد من أن تمتد منها يد عفريت إلى جسمه فتنااله بالغمز والعبث".^(٥)

وهذه الأمثلة في "الأيام" جديرة في حد ذاتها خاصة لمن كان يُنظر إلى حياته على أنها أكثر أهمية من غيره، وفي بعض الحالات تكون جديرة بما يكفي للتعلم للآخرين، ستكون هناك لحظات مؤلمة في اتخاذ القرار للمؤلف، ولكن هناك أيضاً تقلبات والمنعطفات والحوادث والعواقب غير المتوقعة، والاعتبارات في الحياة كما كانت تعيش بكل ما فيها من عدم، ويقين، وغياب. والحياة كما تبدو الآن، من خلال عيون الحاضر. وبشكل متميز ظاهرة فهم السيرة الذاتية، كما يجري استكشافها في هذه الدراسة، يفترض هذا الاختلاف بالذات كما أنها تفترض مسبقاً وجود وعي تاريخي، والذي يمكن فهمه على أنه ذلك الشكل المحدد من الوعي السرد الذي يستلزم ارتباطاً تفسيريّاً مع ما يبدو أنه غير قابل للتكرار ماضي. لا نريد أن نعرف كيف تحدث الأشياء أو كيف تحدث دائماً، مع الأخذ في الاعتبار الترتيب الأبدي للأشياء، ولكن كيف حدثت. لذلك يمكننا أن نقول مقنعاً وقابلاً للتصديق، ربما قصة حقيقية عن كيفية الحاضر جاء من خلال النظر إلى وراء ووضع حركة الأحداث داخل شكل سردي متماسك إلى

حد ما، أو ظهرت رؤية مميزة للفهم الشخصي، مع التركيز بشكل خاص على الانتقال من الوعي الأسطوري إلى الوعي التاريخي.

ومن أمثلة ما قالها شوينكا في كتابه أكي بالنسبة لهذه الأسطورية:

"نقع وراء بيت القصيص من جوار عالم الأرواح والجن الذين يسكونان الغابة السميكة ويطاردون أطفال البيت الذين تجولون بعمق فهم لجلب الحطب والفواكه والخلزونات.^(٦) ثم قال في شأن بنت بائع الكتب:

"لم تكن بنتها الوحيدة "بوقولا" من عالمنا، عندما شكت أصواتنا ضد حيطان المدرسة يرد دون مسافة بعيدة، فبدأ لي بأن "بوقولا" كانت إحدى مقيمين ذلك العالم الآخر حيث قبض وأنخل الصوت ثم اعادته في التقليل من النسخ. وكانت مقيدة إلى الأرض بالتعاويد والأحجية والخلاليل التي ترتديها في ركبته وأصابعها وخصرها لأنها: "أبيكو"^(٧) وكانت الندية الصغيرتان على وجهها جزء العديد من العادات من قبل رفاقها في العالم الآخر. وأنها وحدها تستطيع العبور بسهولة من عالم إلى آخر. لكن أصدقائها في عالم الآخر لا يستطيعون ذلك لأنهم لا يقدرون على الحركة كما نفعل.^(٨)

يلفت شوينكا الانتباه في أسطورة التي قصّ في كتابه "أكي، سنوات الطفولة" عن عمّه "سنيا" وصديقه "بوقولا" وأشار إليهما أنهما من غير عالمنا هذا، وأنسهما إلى العفاريّة اللاتي لا تستحق المعاملة مع الناس، وذلك من ناحية السلوك الواعي، وبالنسبة لهذا السلوك قال Eliade: "الرجل البدائي العتيق، لا يعترف بأي فعل لم يفرضه ويعيشه من قبل شخص آخر، الشخص الذي لم يكن إنساناً عادياً، والحقيقة ما فعله الرجل قد تم القيام به من قبل، فحياته هي التكرار المتواصل من الإيماءات التي بدأها الآخرون."^(٩) وكان من خلال الأسطورة أنه يمكن جعل هذا العالم حاضراً مرة أخرى. والهدف من ذلك، يوضح Kearney أن الأسطورة "لم تكن لابتكار شيء ما لم يحدث أبداً" وأنها توصلنا إلى ربطها بفكرة الخيال، أو لتسجيل ما حدث من شيء وهو الأمر الذي وصلنا إلى الارتباط به مع فكرة التاريخ.^(١٠) فهذه الأمثلة كلها تدل دلالة على الأسطورية التي حكا الأديبان في سيرتهما الذاتية.

السيرة الذاتية والشخصية الحديثة لدى الأديبين

لطه حسين وولي شوينكا، شخصيات بارزة في تاريخ الأدب والثقافة، وكل منهما ترك بصمته الخاصة في مجاله. وفهم سيرتهما الذاتية والشخصية الحديثة يعد أمراً ضرورياً لفهم إرثهما الثقافي والأدبي. تعتبر كتاب "الأيام" أحد أهم أعمال طه حسين، حيث يروي فيها قصة حياته منذ طفولته وحتى بلوغه. كما يتحدث فيها عن تجربته في الحياة الأكاديمية والثقافية، ويتطرق إلى تجاربه في السفر والتدريس في دول عدة، وتعكس هذه السيرة الذاتية شخصية لطه حسين وروحه المرهفة وعشقه للعلم والمعرفة. كان من أشد المدافعين عن الهوية العربية والإسلامية، وكان يرى أن الثقافة والعلم والتعليم

هي مفاتيح النهوض والتقدم، كما كان يؤمن بأهمية القراءة والتعليم وعمل على نشر الوعي الثقافي في المجتمع.

وأما الكتاب "أكي سنوات الطفولة" هي السيرة الذاتية للكاتب المسرحي والشاعر والناشط النيجيري وولى شوينكا. تم وضع الكتاب في بلدة آكي، في غرب نيجيريا، حيث أمضى شوينكا سنواته الأولى. يقدم الكتاب وصفاً حياً وجذاباً لتجارب طفولته، بما في ذلك حياته الأسرية، وتعليمه المدرسي، ومواجهاته مع العالم الطبيعي، وتطور وعيه بالواقع الاجتماعي والسياسي لنيجيريا. تتمثل إحدى السمات الأكثر لفتاً للانتباه في الكتاب في قدرة المؤلف على التقاط مشاهد وأصوات وأنسجة محيطه بطريقة حية ومثيرة للذكريات. يتم تقديم أوصاف شوينكا للأشخاص والأماكن والأحداث التي عاشها في طفولته بأسلوب شعري وغنائي يعيد إليها الحياة على الصفحة. سواء كان يصف النباتات المورقة في الريف النيجيري، أو الشخصيات الملونة لعائلته ومجتمعه، أو نضالات الشعب النيجيري تحت الحكم الاستعماري البريطاني، فإن نثر شوينكا دائماً ما يكون نابضاً بالحياة وجذاباً. ومن جانب آخر بارز في الكتاب هو الطريقة التي يستكشف بها شوينكا موضوعات الهوية والانتماء. كطفل نشأ في مجتمع متعدد الثقافات واللغات، كان يتصارع مع مسائل العرق والجنسية، ويحاول فهم مكانته في العالم. هذا الموضوع وثيق الصلة بشكل خاص بالنظر إلى تاريخ نيجيريا المعقد من الاستعمار والاستقلال والاضطراب السياسي، ويقدم وصف شوينكا لطفولته منظوراً قيماً لماضي البلاد وحاضرها.

لنضع جانباً الزخم التقدمي والمدفوع غائياً لقصة آكي التي نرى فيها تخليص الرجل النيجيري من نفسه، من المستنقع البدائي لأيام طفولته، هناك انتقال مهم آخر الذي يتم توثيقه. لقد لاحظ Dupré: "في اللعب الكوني في العصور الوسطى، أن الصدارة بوضوح للإنسان البشري، ولكن الله الذي يعرف كل شيء ولا يتغير هو مدير المسرحية، فظلت النتيجة متوقعة وبالكاد تختلف من فترة إلى أخرى" (١١). ومن هذا القبيل يمكن القول أن العلامة للتمييز بين فهم السيرة الذاتية في العصور الوسطى وما ظهر في العصر الحديث، على الرغم من أنها قد تكون النظرة، هي قصة ليست من النفس بل من الروح؛ لأنها ترتبط بها فكرة المتعالي، لأن حركة الحياة لا تنفصل من مشيئة الله اليقظة على خلفية الحقائق الأبدية.

وهناك العديد من اللاعبين المهمين في هذه القصة كأمة الملقبة بـ "المسيحية الوحشية" وأبوه الملقب بـ "المقالة"، ولا سيما بوقولا، وأسيكي، وسنيا، وآخرون كل منهم لعب دوراً ملموساً في القصة، من حيث روى لنا شوينكا كيف ينتهي هؤلاء الأشخاص إلى ربهم، وكيف يعاملونه في طفوله سواءاً في البيت، أو المدرسة، أو السوق أو غيرها. اكتشف شوينكا (١٢) في نفسه عالماً جديداً، ورجل الطبيعة، مليئاً بالفنون، الذي اعترف في سيرته دون ندم، حركة الكنيسة والإسلامية في قريته. ثم تحررت من كل ولاءات مذهبية في عالمه ومذهبه إلى أن أصبح علمانياً. فالحقيقة أن كاتب السيرة أبرز أكثر الجوانب

الخفية في كيانه الفردي، التي هي قيمة أكبر يوضع على الحرية الشخصية والفردية والإخلاص، بطولية الفهم وقول الجميع من التعقيدات والتناقضات والانحرافات التي لا تسبب التردد أو الاشمئزاز ولكنها نوع من الدهشة.^(١٣)

في حالة حسين في سيرته "الأيام"، هناك أيضًا تأكيد على الحاجة إلى قول الحقيقة غير المتجسدة في مواجهة مثل هذه التعقيدات والتناقضات والانحرافات، والافتراض أنه، من الممكن تقديم سرد موضوعي إلى حد ما لماضي المرء. من المؤكد أن هناك تحديات وصعوبات في القيام بذلك التي تتعلق بتشوهات في الذاكرة، وتحيزات شخصية، وتلوين الماضي من خلال عيون الحاضر، لكن هذه لا تعتبر عصرية على الحل.

وأما بالنظر إلى حالة السيرة الذاتية لجوته^(١٤)، "من حياتي: الشعر والحقيقة"، فالوضع هنا مختلف إلى حد ما. لأن هناك اعتراف بأن في محاولة الفهم والكتابة عن الذات لا يمكن للمرء أن يحصل على نفس الدرجة من الموضوعية كما هو ممكن في التاريخ أو في السيرة الذاتية على وجه التحديد، لأنه لا يمكن أن يكون هناك فصل كامل بين "أنا" كالفاعل و"ني" في حالة المفعولية، فإن القصة الناتجة منه لا بد أن تتحلل رأي شخصي لا رجعة فيه في السيرة الذاتية. فتعليقات Weintraub على قضايا التعريف المتعلقة بالسيرة الذاتية قد تكون مفيدة في هذا السياق:

"الموضوع الأساسي لكل كتابة السيرة الذاتية هو واقع التجربة الملموسة، وليس عالم الحقيقة الخارجية الغاشمة. فالواقع الخارجي جزء لا يتجزأ من التجربة، ولكن يُنظر إليه من خلال تعديل الحياة الداخلية بتشكيل خبرتنا. الحقيقة الخارجية تصل إلى درجة من قيمة الأعراض مشتق من الامتصاص الداخلي والانعكاس. . . . لذلك تفترض السيرة الذاتية وجود كاتب عازم على التفكير في عالم الخبرة الداخلي مسبقًا، شخص يهتم بهذه الخبرة العالم الداخلي".^(١٥)

من هذا المنظور، ربما يمكننا أن نفهم بشكل أوضح إصرار طه حسين على ربط ضميري "المتكلم" و"الغائب" إشارة إلى نفسه في سيرته. (الأيام) لأن العالم الداخلي عالم لا مثيل له، ولكن يمكن التصالح معه، من خلال التأمل والتدبر والتفكير في السيرة الذاتية والكتابة التي يلجأ إليها الكاتب أحيانًا في مواجهة العالم الخارجي. وهناك جانب مهم يجب التأكيد عليه أن هذه القضية تطرح تمامًا تحديات ملحوظة للتحقيق السردية. فالباحث في التحقيق السردية في كثير من الأحيان يتعامل في جوهره، مع بيانات السيرة الذاتية "أي بيانات الشخص الأول" يعني "المتكلم" الذي يجب أن تقدم في مصطلحات السيرة الذاتية (أي الغائب). حتى لو كان يطمح نحو تحقيق قدر من الموضوعية تجاه هذه البيانات. ومع ذلك، لا تزال هناك حقيقة أن هذه البيانات نفسها سيتم تصويرها من خلال الذاتية والتفسير والخيال. أجل، لو وضعنا في أبسط المصطلحات في فهم السيرة الذاتية، لا يوجد شيء، ولا "نص" خارج الذات؛ حتى على الرغم من أن كاتب السيرة الذاتية قد يعتمد على وثائق شخصية معينة وما شابه أثناء

صياغة قصته. فالظاهرة التي هي في النهاية من الاهتمام، في ماضي الفرد الشخصي أو حاضره، يجب أن يتم تشكيله من خلال النثر الفني، أو الشعر، أو من خلال العمل التفسيري والخيالي لصنع المعنى (فريمان)^(١٦). وهكذا يفسر كاتب السيرة الذاتية ما لديه من التجارب بالفعل من خلال الخيال، ثم بعد ذلك يقوم الباحث السردى محاولة تحويل هذه البيانات غير إلى نوع من العلوم الذي قد يقرأ الآخرون وربما يتعلمون منه.

السيرة الذاتية وسؤال الحقيقة لدى الأدبيين

قد يبدو التحرر على المنظور الذي تم الكشف عنه، للذين لا يهتمون بالمسائل الهامة، يؤدي ذلك إلى بعض الأهمية الصعوبات التي يواجهها الذين يرغبون في رؤية التحقيق السردى واجباً وقابل للدفاع عنه بديل للنهج العلمية الاجتماعية. وإذا كان يُنظر في الواقع إلى روايات السير الذاتية على أنها لا علاقة لها على الإطلاق بمثل مفهوم "الواقع" و "الحقيقة"، فكيف يمكن لطلاب علم النفس أن تكون ذات قيمة؟ لذلك قد يتساءل المرء في هذه المرحلة، هل هناك طرق أخرى لتأطير القضايا المطروحة من أجل الانفتاح بشكل أكثر بناءة وقابلية للدفاع مساحة للتحقيق السردى؟

ومن هنا، أريد أن أنتقل إلى حسين وشوينكا مرة أخرى، مع التركيز على خطوة أخرى، متناقضة مثل تلك التي اكتشفناها سابقاً، ولكن هذا يفتح المساحة المطلوبة. في ضوء الثورة المذكورة آنفاً على الصعيدين التاريخي والواضح الامتداد في فهم السيرة الذاتية، وهناك حاجة "للتخلي عن الادعاء الموضوعية، والتخلي عن نوع من السلوك العلمي الزائف الذي من شأنه أن يحكم على العمل من خلال دقة التفاصيل". أود أن أقترح أن هذا الموقف العلمي الذي هو موقف يستمر في السيطرة على منهجية علمية اجتماعية معاصرة - وهذا بدوره هو السبب في أن البحث السردى غالباً ما يُعتبر غير علمي أو في الأقل علمياً بشكل غير كافٍ. الحجة هنا بسيطة بما فيه الكفاية: بقدر ما يرى العلم "الواقعي" باعتباره الشيء الذي يمكن قياسه وميزانه، فإن الروايات ملزمة به تبدو بعيدة كل البعد عن القواعد العلمية. ومع ذلك، تبقى حقيقة غريبة: غالباً ما تبدو الروايات قادرة على تزويدنا بفهم للناس بطريقة أكثر التي لا يمكن للمنهجيات "الموضوعية". هذا لأنهم ما ينبثقون من حقيقة غالباً، بدلاً من موقف علمي زائف، وهو موقف يمارس الإخلاص وليس لما يمكن قياسها وميزانها، ولكن بالنسبة للشخص كله، والحياة البشرية كلها، في الكل تفاصيلها الغامضة والفوضوية والجميلة^(١٧). ومن هذا المنظور يتضح لنا ما ذكره حسين من سيرته عندما قص كيف حفظ القرآن في صغره مرتين ونسيه وسعى ذلك بيوم المشؤوم. والجدير بالذكر أنه ذكر هذه الحادثة بالدقة من حيث ذكر السورة والآية بغير غموض.^(١٨)

ويهدف التحقيق السردى إلى ممارسة الإخلاص للتجربة الإنسانية كما مثله حسين في سيرته، وبالتالي يسعى، إلى أن يكون أكثر علمية من تلك المشاريع التجريبية المنهجية بدقة، وذات الأساس الكمي التي تم تكريسها تقليدياً. لذلك يجب البحث عن أهمية السيرة الذاتية بما يتجاوز الحقيقة والخطأ،

حيث يتم تصويرها من خلال الفطرة السليمة. إنها بلا شك وثيقة عن حياة، وللمؤرخ الحق الكامل في التحقق منها شهادته والتأكد من دقتها. لكنه أيضًا عمل فني، وسوف يكون المحب الأدبي من جانبه على دراية بتناغم الأسلوب والجمال من صورها. ^(١٩) ومن هذا المنظور، يلائم ما ذكره شوينكا في سيرته حول جولته ومروره من أكي إلى إرابا حتى ضلّ الطريق إلى المنزل من حيث اضطرب العائلة بغيابه وهو لا يبالي بكونه صغيرًا. ^(٢٠)

نحن بحاجة إلى تجاوز الحقيقة والخطأ، كما يتم فهمهما عادةً، ونحتاج إلى التعرف على البعد الجمالي وتقديره من السيرة الذاتية. هذه الفكرة الأساسية، في اعتقادي، لا تنطبق فقط على السير الذاتية التي قد نرغب في دراستها كباحثين سرديين، سواء كانوا من المخبرين لدينا أو الذين نجدهم في المكتبات، ولكن لتمثيلاتنا الخاصة منهم، في القصص البحثية التي نرغب في سردها. لا يمكن أن تتساوى الحقيقة التي نسعى لقولها مع الإخلاص "للحقائق" وحدها؛ وبقدر ما هو هدفنا حقًا لكي نكون مخلصين للواقع الحي والمتنفس للذين ندرسهم، سيكون من الضروري استدعاء كل البراعة التي يمكننا القيام بها. ولا شك في أن طفولة حسين مليئة بالصعوبات لكونه مكفوفًا، وفي الحقيقة روى معاناته وذهب إلى حد كبير من أجل التأثير الدرامي، الذي ترك القراء تعاطفًا بلا ريب مما قد يكون لديهم.

لا ينبغي أن نقول هنا على أن "الوظيفة الأدبية والفنية" للسيرة الذاتية، هي غير مهم أو مجرد تزيين. بلى على العكس مثل كاتب السيرة الذاتية يجب أن يوظف الشكل الفني بطريقة تخدم حقًا محتوى حياته، ويجب على الباحث السرد أن يفعل الشيء نفسه. وفي كلتا الجاليتين، التحدي في تناول اليد هدف النثر الفني، والهدف الأول هو عدم إعادة إنتاج الواقع ولكن تحقيقه وتفسيره، وإضفاء المعنى على الوجود بطريقة تجعل العالم جعلها مرئية. وبالرغم من الصعوبات التي كنا نفكر فيها. قد حصل حسين على هذا الجزء من روايته بشكل صحيح تمامًا من حيث قال: "كان الصبي يعيش في أسرة كبيرة تصل إلى (ثلاثة عشر فردًا) وكان ترتيبه السابع بين أبناء أبيه والخامس بين إخوته الأشقاء البالغين (أحد عشر أخًا) وقد كان له مكانة خاصة بين أخوته وكان لا يستطيع أن يحكم على منزلته بينهم حكمًا صادقًا، هل كانت ترضيه أم تؤذيه ... فكان يجد في أبيه لبنا ورفقًا ومن أمه لبنا ورحمة، ومن إخوته الاحتياط في معاملته وكان يرى من أبيه وأمه إهمالًا وغلظة أحيانًا. وقد كان احتياط إخوته يضايقه لأنه وجد فيه شيئًا من الإشفاق ممتزجًا بالإهمال أحيانًا ... واكتشف الصبي بعد ذلك سبب هذه المعاملة فإخوته يرون ما لا يرى وأنهم يكلفون بأشياء لا يكلف بها فكان يغضب لذلك ثم تحول غضبه إلى حزن صامت حتى علم الحقيقة وأنه (أعمى). ^(٢١)

هناك ميل في البحث السردى لعرض الحقيقة حول ما أقرّه Gusdorf الذي يتحدث باعتباره عن "حقيقة سردية" النوع الموجود في الأعمال الفنية بدلاً من الأعمال التاريخية أو العلمية. لكن هذا يمثل إشكالية في حد ذاته. لأن ما يفعله في النهاية، هو انقسام الحقيقة إلى قسمين، كائن واحد موضوعي

والآخر ذاتي. "السيرة الذاتية" مثل التاريخ، "خيالية". جادل Gazzaniga أن "السيرة الذاتية هي إبداعية بشكل ميؤوس منها" ^(٢٢). وفي الحقيقة هي "محاولة الحفاظ على قصتنا الشخصية معاً"، "يجب علينا أن نتعلم الكذب على أنفسنا. . . ونحن بحاجة إلى شيء يوسع الواقع حقائق تجربتنا في سرد مستمر، وفي الصورة الذاتية التي كنا عليها بناء في أذهاننا لسنوات" ^(٢٣). لا يجد Gazzaniga أي حاجة للثناء في هذا السياق بالتأكيد، فالحياة خيال، لكنها خيالنا وتشعر بالرضا ونحن مسؤولون عنها ^(٢٤). والأشخاص بدورهم، هم تلك التخيلات عن النظام الذي تم استفزازنا لخلق التماسك في مواجهة ما يمكن أن يكون لولا ذلك مجرد تدفق للحالات التجريبية.

المنظور الذي قدمه Gazzaniga وآخرون - دعونا نسميها منظور "السرد - الفرضية - التخيلية" - له جاذبيته، وليس أقلها التي تتضمن هذه الفكرة الأخيرة، "نحن مسؤولون" عن سيرتنا الذاتية الخيالية، قادرة على تشكيلها كما نتمنى. وفي الواقع، من خلال إعادة كتابة الماضي وفقاً لرغباتنا وتصميماتنا، يمكننا دعم أنفسنا المترهلة باستمرار والاستمتاع في ضوء أحسن حالنا، على الرغم من أنها قد تكون وهمية.

انطلاقاً مما سبق أريد القول في أن أهم أهداف البحث السردى هو التفكير وراء هذا الانقسام الموضوع الكائن، وبالتالي التحرك في اتجاه ذلك "الجديد وإحساس أكثر عمقاً بالحقيقة" الذي أشار إليه Gusdorf سابقاً. وبشكل أكثر تحديداً، فأنا أقترح أن يكون من المفيد، التفكير في هذا الأمر عن مجموعة من المشكلات بطريقة تتعارض فعلياً مع العرض الذي تم النظر فيه للتو. إذن يمكن أن تكون "ما حدث بالفعل" لا يمكن توقعه إلا من خلال فهم السيرة الذاتية نفسه. وغالباً ما لا نعرف ما يحدث عندما يحدث. بدلاً من ذلك، وغالباً ما نتأخر، وأحياناً متأخرون جداً، وكل ما يمكن القيام به هو لرواية القصة: بغض النظر عن المظاهر، فهناك انفتاح أساسي على الماضي التاريخي وهناك توجد دائماً إمكانية إعادة كتابة قصة ما حدث مرة أخرى. ولا أود في النهاية أن أقترح أن حقيقة السرد يمكن أن تكون دقيقة مغلف في شكل معين. ربما يكون من الأفضل التحدث في هذا السياق منطقة الحقيقة بدلاً من منطقة محددة بشكل منفصل. هؤلاء المؤهلات، على الرغم من التحدي المتمثل في معرفة ما حدث بالفعل، بدلاً من أن يكون استنساخاً للماضي "كما كان" يفهم بشكل أكثر ملاءمة على أنه "إعادة وصف إبداعية" للماضي ^(٢٥) وهي جزء لا يتجزأ من البعد السردى الجوهرية في أشكال فهم السيرة الذاتية. وهذا البعد السردى هو الذي يمكن أن يفتح الطريق نحو تصور مفاهيمي أكثر اتساعاً للحقيقة وفي إطار عمل أكثر ملاءمة وإنسانياً لاستكشاف عالم الإنسان.

البعد ومشروع التحقيق السردى في السيرتين الذاتيتين

وفي النهاية هذه الدراسة علينا أن نسأل: ما هو بالضبط هذا البعد السردى؟ وهل يمكن لنظرتنا في فهم السيرة الذاتية أن ترشد سؤال السرد؟ ويمكن القول بالبعد السردى لفهم السيرة

الذاتية لتستلزم سلسلة رائعة جداً من العلاقات الجدلية كما يتضح جلياً في السيرتين الذاتيتين. أولاً، كما رأينا بالفعل، فإن تفسير وكتابة الماضي الشخصي فيما ذكرهما حسين وشوينكا، بعيداً عن كونه عملية نزيهة لإعادة إنتاج ما في حياتيهما، فإنه بدلاً من ذلك انتاج الحاضر فيما يتعلق من الاهتمامات والاحتياجات والرغبات التي تصاحبها الأدبيين. وتتحول هذا الحاضر من خلاله في المتناول بهذه العملية. وفي الواقع، قد يتم تشكيل الذات الجديدة من خلال هذه العملية بمعنى مختلف؛ ثم يتم الكشف عن أبعاد الوجود التي لم تكن لتوجد حرفياً، وتصل إلى شكل مفصل التي لم تتم عملية السيرة الذاتية إلا بها.^(٢٦) والمراد بذلك أن هناك علاقة جدلية لا تنحصر بين الماضي والحاضر فحسب، بل ترابط بين الماضي والحاضر والمستقبل: حتى في خضم ارتباطي الحالي بالماضي بين الأدبيين في هذه الدراسة، فإنني أتحرّك في المستقبل وإعطاء الشكل والمعنى للذات. لذلك فإن السيرة الذاتية ليست الصورة النهائية أو التثبيت إلى الأبد لشيء ما أو الحياة الفردية: لأن الإنسان هو دائماً صنع؛ ومذكرات تنظر إلى جوهر خارج الوجود.^(٢٧)

ومن ثم هناك نثرية مزدوجة في الروايتين التي تعمل في هذه العملية، بحيث يتم تجميع العناصر غير المتجانسة لحياة الأدبيين، وجمعها معاً عبر الخيال السردى، (الأيام وأكى) ويتم إعادة بناء الذات بدورهما، ثم إعادة تشكيلهما على صورتيهما. وينبغي التأكيد على أن البعد السردى يرتبط بالبعد الأخلاقي أيضاً لعملية إعادة صنع الماضي، وبالتالي إعادة تشكيل الذات حتماً. فيتم على خلفية الفروق النوعية القوية فيما يتعلق بالطريقة التي ينبغي للمرء أن يعيش بها. والجدير بالذكر أن استكشاف عملية فهم السيرة الذاتية للأدبيين يعمل على أن كلا من الماضي الشخصي للأدبيين وذاتهما الذين في ماضيهما هي في الواقع بناءات التي تنطلق من الخيال السردى.

ومن هنا نقول إن ما يسميه Octavio Paz "التجربة الشعرية" هي بالأحرى أن تكون يُفهم على أنها "كشف عن حالتنا الأصلية". هذه الفكرة "تتحول دائماً إلى خلق أنفسنا". ويصر Paz جنباً بجنب مع Gusdorf، على أن هذه الفكرة "لا يكشف عن شيء خارجي، بل إن الكشف يتضمن خلق ما سينكشف كياننا"^(٢٨). إذن يمكن أن نتفكر عن الهوية الذاتية كمشروع شعري غير مكتمل، الذي يصدر من السرد الخيال كما يتجلى في عملية فهم السيرة الذاتية.^(٢٩)

فالتحدي المطروح الذي ينطبق على كل من الأدبيين في كتابة سيرتهما هو للعثور على لغة تتجاوز التخطيطات والتقليدية العالية، حتى الصور المبتذلة. ومن ثم، يتعين على الكاتبين أن يحاربوا باستمرار ضد التدفق السهل للكلمات التي تقدم نفسها. والحقيقة أن هذا هو الوعي والنضال والقدرة على تضيق الفجوة بين الخبرة والكلمات التي يصنعها الكاتبين. ويمتد هذا الوعي والنضال إلى أشكال فهم السيرة الذاتية وكذلك جميع المحاولات من جانب الباحثين السرديين لسرد قصص الآخرين. ولو كان التحقيق السردى يتطلع نحو السير الذاتية، أو يتطلع بدلاً من ذلك نحو أشكال أكثر معيارية من بيانات السيرة الذاتية، فإنه من الأفضل أن نظل مدركين لهذا التحدي إلى جانب الإمكانيات غير العادية

التي ينطوي عليها، لأن ما يعتبر به أن فهم السيرة الذاتية هو في قلب المشروع السردي، حيث يقع عند تقاطع الفن والعلم مما يطمس حدودهما من خلال عمله.

وهناك طرق عديدة تتم من خلالها كتابة السيرة الذاتية وبيانات السيرة الذاتية بشكل عام يمكن استخدامها في التحقيق السردي. ومن الواضح أنها قد يمكن استخدامها لتوليد نظرية علمية اجتماعية، على سبيل المثال حول الذاكرتين اللتين كنا في دراستهما. فإن ما أريد أن أشير في الختام إلى أن هذه العناصر والمعلومات في الناحية الأدبية من البيانات قد يكون أيضاً في خدمة أهداف هذه الدراسة. والحقيقة هي أن الأدب والسيرة الذاتية وغيرها غالباً ما يحدث لتجسيد ما نسميه بالحياة بكامل أبعادها وذلك بواسطة الاهتمام بالخصائص الملموسة للحياة، ومن خلال البحث عن طرق للسماح هذه الحياة لتعيش على صفحات الروايات والمذكرات، ويبدو أن الأعمال الأدبية غالباً ما تقترب من الواقع أشياء إنسانية عميقة يبحث عنها العديد من القراء. وهذا لا يعني أنه يجب على الباحثين والعلماء أن يقوموا بإنشاء أعمال أدبية في حد ذاتها؛ وفكرة البحث السردي نفسها تستلزم مفهوماً يمكن للمرء أن يقول إن "الموضوعية" تشير إلى ما هو أبعد من النهج البحث الأدبي. وهذا يعني توجيه جزء من البحث السردي نحو الكتابة عن حياة الإنسان بطريقة يمكن من خلالها جعل روايته المتأصل أكثر أهمية.

وقد أشرت في هذا السياق إلى فكرة "العلم الروائي"، وهو شكل من أشكال النقد التحقيق السردي الذي من شأنه يقع عند تقاطع الفن والعلم وذلك من شأنه يدعم في الهدف المعرفي المتمثل في زيادة المعرفة وفهم العالم الإنساني ثم الهدف الأخلاقي المتمثل في زيادة التعاطف والرحمة. ربما باسم العلم الروائي، لا يزال هناك ميل في الاستقصاء السردي لتقليل البعد الفني، لتعظيم البعد العلمي، ويفعل ذلك بشكل خيالي وفي قدر الإمكان من خلال خلق العمل الذي لا ينقل المعرفة في هذا المجال أو ذاك فحسب، بل يستخدم الكتابة أيضاً ويستخدم الشكل بطريقة تخدم المحتوى والأشخاص المعنيين حقاً. هذا هو تحدياً روائياً للسيرة الذاتية والبحث السردي على حدٍ سواء، وهو يستحق المتابعة.

المراجع والمصادر

- 1- Freeman, M. (1998). Mythical time, historical time, and the narrative fabric of the self- Narrative Inquiry, 8, 27–50
- Geertz, C. (1983). Local knowledge: Further essays in interpretive anthropology. New York: Basic Books.
- Shweder, R., & Bourne, E. (1984). Does the concept of the person vary cross-culturally? In R. Shweder & R. LeVine (Eds.), Culture theory: Essays on mind, self, and emotion (pp. 158–199). Cambridge, UK: Cambridge University Press.
- Taylor, C. (1989). Sources of the self: The making of modern identity. Cambridge, MA: Harvard University Press.
- 2- Freeman, M. (2006). Life “on holiday”? In defense of big stories. Narrative Inquiry, 16, 139–146.
- ٣- طه حسين "الأيام" جزء الأول دار المعارف، القاهرة مصر ص ٦-٧
- ٤- طه حسين المرجع السابق ص ٧-٨
- ٥- طه حسين المرجع السابق ص ٨-٩
- 6- - Wole Soyinka “Ake: The Years of Childhood” Ibadan, Spectrum Books Limited, 1988 p2
- ٧- بمعنى الطفل الذى يولد ثم يموت ثم يولد ثم يموت وهكذا، فهذا من عقائد الكاتب من التقاليد اليورباوية.
- 8- Wole Soyinka “Ake ibid pp 15-17
- 9- Eliade, M. (1954). The myth of the eternal return: Or, cosmos and history. Princeton, NJ: Princeton University Press.
- 10- Kearney, R. (2002). On stories. London: Routledge.
- 11- Dupré, L. (1993). Passage to modernity: An essay in the hermeneutics of nature and culture. New Haven, CT: Yale University Press.
- 12- Wole Soyinka “Ake pp 23-24
- 13- Wole Soyinka “Ake pp 29-30
- 14- Goethe, J. W. (1994). From my life: Poetry and truth (Parts 1–3). Princeton, NJ: Princeton University Press.
- 15- Weintraub, K. (1978). The value of the individual: Self and circumstance in autobiography. Chicago: University of Chicago Press.
- 16- Freeman, M. (2005). Science and story. Unpublished manuscript, Methods in Dialogue Conference, Centre for Narrative Research, University of East London.
- 17- Freeman, M. (2006). Life “on holiday”? In defense of big stories. Narrative Inquiry, 16, 139–146.
- ١٨- طه حسين الأيام المرجع السابق ص ٢٧-٣٢
- 19- Gusdorf, G. (1980). Conditions and limits of autobiography. In J. Olney (Ed.), Autobiography: Essays theoretical and critical (pp. 28–48). Princeton, NJ: Princeton University Press.
- 20- Wole Soyinka “Ake pp 51-53
- ٢١- طه حسين الأيام المرجع السابق ص ٣٧-٤٠
- 22- Gazzaniga, M. (1998). The mind’s past. Berkeley: University of California Press. 26 - 27

- 23- Gazzaniga, M. (1998). The mind's past, 55.
- 24- Gazzaniga, M. (1998). The mind's past, 172.
- 25- Kearney, R. (2002). On stories. London: Routledge.
- 26- Freeman, M. (2006). Life "on holiday"? In defense of big stories. *Narrative Inquiry*, 16, 139–146.
- 27- Gusdorf, G. (1980). Conditions and limits of autobiography. In J. Olney (Ed.), *Autobiography: Essays theoretical and critical* (pp. ٤٧).
- 28- Paz, O. (1973). *The bow and the lyre*. New York: McGraw-Hill. P١٦٧
- 29- Freeman, M. (2002a). The burden of truth: Psychoanalytic poesis and narrative understanding. In W. Patterson (Ed.), *Strategic narrative: New perspectives on the power of personal and cultural stories* (pp. 9–27). Lanham, MD: Lexington Books.